أهل الشام

ريبورتاج

جثامين ضائعة أو مجهولة الهويّة

الموت (ليس) راحة!

لم تعد أنباء الكشف عن مقابر جماعية للسوريين أمراً غريباً. بل باتت جزءاً من «روتين الأخبار»! وينطوي ملف «المقابر الجماعية» على إشكالات كثيرة. تُصعّب مهمّة التعرف على الجثامين. فيما يحكي بعض القصص عن جثامين رُقدت في قبور مخصّصة لجثامين أخرى. وعن شهداء الحقوا بعائلات ليست عائلاتهم

نسرين علاء الدين

ليس الموت «خاتمة الحكاية» دائماً في الحرب السوريّة. ثمّة قصص لعبَ الموت فيها دور «الفاصلة»، بين حكايتين مأسويتين. كثر هم من لم يعلموا عن مصير أحبتهم وذويهم، سوى ما أخبرتهم به أوراق صادرة عن إحدى الجهات المختصة، تفيد بأن أحبتهم «ماتوا، أو استشهدوا». عائلات تسلمت جثثاً تعرضت لتشوّه، أو أضرار كبيرة، ما جعل الجزم بهويّة تلك الجثث أمراً صعباً، وقد ثبت في بعض الحالات أن الجثة المتسلمة لم تكن لصاحب الهوية المعلنة وفاته، وأحياناً «بعد فوات الأوان»!

«جثمان آخر في قبر أخي»!

يستعرض مازن، من أبناء دمشق، صور أخيه الشهيد بحزن شديد. «كان أخي قد تطوع مع الدفاع الوطني»، يقول الرجل لـ«الأخبار»، ويضيف «رغم مرور أكثر من سنة على تطوّعه، قام أحد الحواجز على أطراف دمشق بسوقه الى الاحتياط». التحق الأخ بالخدمة الاحتياطيّة بالفعل، وتمّ فرزه إلى محافظة دير الزور. بعد ستة أشهر اتصل بشقيقه ليخبره بأنه أصيب، وأنّ الضابط المسؤول عنه لم يمنحه إجازة. يقول مازن «بعد أيام قليلة كلّمني صديقه، وقال إنّ أخي استشهد». وصل الجثمان إلى «مشفى تشرين العسكري» بعد خمسة أيام، وذهب مازن لتسلّمه. «الجثة التي أعطوني إياها لم تكن لأخي. صحيحٌ أن الجثّة كانت منتفخة، لكنّني أعرف أخي من علامات كثيرة: كان قد فقد جزءاً من سبابة يده اليمنى أثناء عمله في صنع الحلويات، ولديه ندبة من جرّاء عمل جراحي في رئته اليمنى». رفض الرجل أوّل الأمر تسلّم الجثمان، وبحث بين الجثث الأخرى أملاً في العثور على الجثمان الصحيح. «لم أجد أخي. قمت بدفن الجثة التي أعطوني إياها، ولم أخبر إخوتي ووالدتي بشكوكي، لكنني واصلت السعي وراء مصير جثمان أخي». بعد قرابة خمسة أشهر اهتدى مازن إلى عائلة تقيم في حلب، تحمل اسم عائلته نفسه، وقد استشهد أحد أبنائها بالتزامن مع استشهاد الشقيق المفقود جثمانه. «استغربوا لما سألتهم إذا كانوا متأكدين إنو الجثة اللي دفنوها هي جثة ابنهم فعلاً». شرح مازن للعائلة الأخرى الموقف، ووضعهم في صورة شكوكه، مرت أيام وتلقّى مازن اتصالاً يخبره بأن العائلة الحلبيّة قررت إجراء تحليل «DNA». بعد شهرين ظهرت النتيجة، «الشخص الذي دفنته على أنه أخي لم يكن أخي، بل كان ابن العائلة الحلبية، وجثة أخي دُفنت في حلب». يقول مازن «طلبت والدتي نقل رفاة أخي الى مقابرنا، وإرسال جثمان الشاب إلى ذويه، لكنني رفضت. الأمر مربك جداً لنا ولهم، والظروف الأمنية والعسكرية وقتذاك لم تكن تسمح بالقيام بمثل هذه الإجراءات على أصولها». يختتم الرجل قصته «أزور قبر الشاب الذي دفنته على أنه أخي في الأعياد والمناسبات، وقد وضعت على شاهدة القبر اسمه الحقيقي. لن أنسى أن أخي دفن في مكان ثانٍ، ولو لم أنتبه لم أكن لأعرف من هو الشخص الذي دفنته».

جثامين محروقة... ورؤوس مقطوعة

ثمة قصص مشابهة أخرى، لكنّ بعض العائلات تفضّل عدم الخوض فيها. وفيما تنتظر عائلاتٌ كثيرة جثامين أبنائها، دُفنت جثامين كثيرة وهي مجهولة الهويّة. ويواجه عمل «الهيئة العامة للطب الشرعي» مشكلات عديدة، تجعل الجزم بهويات الجثامين المدفونة في «المقابر الجماعيّة» المكتشفة مهمّة صعبة. يشرح «المدير العام للهيئة» الدكتور زاهر حجو لـ«الأخبار» بعضاً من الإجراءات المتّبعة. «حين يتم إبلاغ الهيئة باكتشاف مقبرة، يتوجه فريقٌ إليها، ويقوم بالتقاط صور الجثامين، ليتم التعرّف عليها لاحقاً بالاستعانة بالصور، أو بما ترتديه من ثياب، أو بالوثائق الشخصية إن وجدت». يقول حجو «في بعض المقابر اكتشفنا أنّ الإرهابيين قاموا بحرق الجثث، ما يجعل التعرّف عليها أمراً مستحيلاً، فحتى تحليل الحمض النووي ريف دمشق ودير الزور. وفي حالات أخرى كنا نكتشف جثثاً بلا رؤوس، في مناطق عمد فيها الإرهابيون إلى قطع الرؤوس وإلقائها بعيداً عن الأجساد». يوضح حجو أن عمل «الطبابة الشرعية» لم يتوقف على امتداد الحرب. يقول «في شهر آب من عام 2012، استحدثنا مقبرة في إحدى المناطق، ودفنّا الجثث بعد إعطاء القبور أرقاماً، وربطها بصور تلك الجثث لتسهيل التعرّف على الجثث في ما بعد، فالظروف وقتها لم تكن تسمح بغير هذا الإجراء». ويضيف «حرصنا على التقاط صور للجثث والثياب، وأخذ عينات من DNA. وبالفعل بعد عودة الأهالي الى تلك المنطقة، استطاع عدد كبير منهم التعرف إلى الجثث المدفونة في تلك المقبرة». يؤكد حجو لـ«الأخبار» أنه «لا يتم دفن أي جثة، سواء كانت لعسكري أم مدني من دون أخذ عينات يتم حفظها في المخابر السورية»، ويشير في الوقت نفسه إلى وجود معلومات لدى «الهيئة» عن «عشرات الآلاف من الجثث المدفونة في مقابر جماعية أو فردية في مناطق خارجة حالياً عن سيطرة الحكومة، لا سيّما في إدلب».

لا يدفن اي جثمان مجهول الهوية من دون اخذ عيّنات يتم حفظها في المخابر (أرشيف ـ أ ف ب)

> «لم أجد أخي. قمت بدفن الجثة التي أعطوني إياها ولم أخبر إخوتي ووالدتي»

اختصاص «غير مرغوب»!

في شهر تشرين الثاني من عام 2014 صدر «القانون رقم 17» القاضي باستحداث «الهيئة العامة للطب الشرعي». حتى اليوم، تعاني «الهيئة» في شكل أساسي من «قلة في الإقبال على تخصص الطب الشرعي»، وفقاً لمديرها العام. ويقول حجو «على عكس باقي الاختصاصات، فالطبيب الشرعي لا يمكنه أن يفتتح عيادة خاصة تساعده على العيش بكرامة». ويتبع لـ«الهيئة» اليوم 56 طبيباً شرعيًا، و20 طبيباً مختصاً بطب الأسنان الشرعي. لكن هذا العدد «لا يزال قليلاً، قياساً بحجم العمل المطلوب. فمثلاً في حلب يوجد خمسة أطباء شرعيين فقط، يغطون مدينة حلب وريفها». يؤكد حجو أنّ «عمل الطب الشرعي لا يقتصر فقط على الكشف على المقابر الجماعية، فنحن أطباء ولم نتوقف عن عملنا المدني، كما لعبنا دوراً في كشف عدد كبير من الجرائم، خاصة تلك التي يحاول مرتكبوها إظهارها على أنها حوادث ناتجة عن الحرب». ويضيف «نعمل على زيادة عدد الأطباء من هذا الاختصاص، وزيادة خبرة من يعمل فيه. أوفدنا عدداً من الأطباء إلى الصومال وإيطاليا، لحضور تدريبات بالمشاركة مع لجنة الصليب الأحمر على آليات الكشف عن المقابر وانتشال الجثث، وغيرها من التدريبات». كذلك، تحاول «الهيئة العامة» الإضاءة على أهمية اختصاص «طب الأسنان الشرعي»، خاصة في الظروف الراهنة التي تمرّ بها البلاد.

«أريد جثة ابني»

تنشّح أم محمد بالسواد منذ سنة ونصف، حداداً على ابنها الذي استشهد على مقربة من حلب. تقول السيدة لـ«الأخبار» إنها تلقّت اتصالاً هاتفياً في أواخر عام 2016، يُخطرها باستشهاد ابنها الأوسط، سومر (22 عاماً)، أثناء إحدى المعارك. «لم يكمل ابني دراسته الجامعية بسبب نزوحنا والظروف التي كنا نعيشها، لذلك التحق بالخدمة الإلزامية». وتضيف «كان الضابط يعدني دائما بأنه سيعيد لي (جثمان) ابني بعد أن تتحرر حلب، لكنني حتى اليوم لم أتسلّم شيئاً». تقول السيدة بحرقة «حصلت على وثيقة استشهاد، وتعويض مادي، لكنني أريد ابني، أريد دفن جثمانه بقرب والده وأبناء أعمامه»، وتُردف «من حقي أن أحصل ولو على عظمة منه، كي أدفنه بالشكل اللائق، وأزوره، وأشكو له همي».

وجوه

أم محمد الدارانيّة... خبزٌ معجونٌ بمحبّة

تلفت نظرك بابتسامتها الهادئة، ووشاحها الأبيض التقليدي، وتلك السبحة التي لا تفارق يدها. أم محمد سيدة تفترش أرصفة الشام. بأناقة تضع حوائجها التي وزعتها بشكل منمق، لن تسمع لها صوتاً ينادي أو يطلبك أو يرجوك أن تشتري منها.

تقول أم محمد (75 عاماً) من أبناء داريا «يعرفني معظم أرصفة دمشق، فأنا منذ أكثر من أربعين سنة أسكن على هذه الأرصفة، أبيع الخبز بمعظم أنواعه: صاج، وتنور، وأبيض، وأسمر. كما أبيع المنتجات التي كنت أصنعها في البداية مع بناتي ومن ثم زوجات أبنائي: اللبنة، والجبنة، والكشك». تتفاخر السيدة الدارانيّة بأنّ كثيراً من زبائنها «يأتون إليّ في أي مكان أجلس فيه، لأنهم لمسوا الأمانة والمحبة والصدق في المواد التي أبيعها. هم يأمنون على بيوتهم وأبنائهم حين يطعمونهم منتجاتي». وتضيف «بقيت عشر سنوات أبيع بالقرب من سوق الحميدية، ومنطقة ركن الدين، ومنطقة الجسر الأبيض، وشارع الحمرا، لقد أكلت هذه الأرصفة جزءاً من جسمي». خطف الموت زوج السيدة باكراً، إثر مرضه. «ترك لي ثلاث بنات وثلاثة أولاد، لجميعهم أفواه مفتوحة تطلب الطعام ولا يملكون سوى أيدٍ صغيرة لا تصلح للعمل في الأرض أو أي مكان. ولم يهن عليّ أن أمدّ يدي طالبةً معونة أحد». حاولت أم محمد دفع أبنائها إلى إكمال تعليمهم، لكنّهم «أرادوا أن يحملوا معي جزءاً من العبء، فتعلموا النجارة، مهنة والدهم. وبالفعل، استطعت بفضل عملي ومساعدتهم بناء بيت لنا». قبل الحرب «قررت أن أرتاح من برد الأرصفة الذي خرق عظامي ومن شمسها الحارقة»، تقول. لكن «اندلعت الحرب. دُمّر منزلي، ومات اثنان من أبنائي مخلفَين وراءهما كوماً من اللحم، يحتاج من يطعمه ويمسك بيده». هكذا، عادت السيدة إلى الأرصفة من جديد.

لا تجد أم محمد حرجاً في تصويرها أو الكتابة عنها. تبتسم وتقول «ليش لا! بلكي شافهم ابني اللي بألمانيا، أكيد رح ينبسط».

أبو وسام: «التقنين» يحارب حاسة السمع!

يدخلُ أحد الزبائن إلى محل أبو وسام في حي «القيمرية بدمشق القديمة»، يلقي عليه السلام، ليردّ الأخير «أهلا وسهلاً». يستفسرُ الزبون عن الأسعار، ويجيبه الرجل الستّيني عن سعر كل قطعة وخصائصها. ما هي إلا لحظات حتى تنقطع الكهرباء، وينقطع معها التواصل بين الزبون والعم ديب بلح الذي توقّف عن الردّ على أي سؤال، ليدرك الزبون أخيراً أن أبو وسام أصمّ، لكنّه كان يقرأ حركات الشفاه. يعملُ العم ديب في صناعة الجلديات منذ ثلاثين عاماً، وقد تدرّب منذ صغره على الاعتماد على نفسه، فتعلّم لغة الشفاه وحركات الوجه ليفهم ما يقوله الآخرون. «تعلمت أن أنظر إلى الآخرين كيف ينطقون الحروف، فأعاين مخارجها، وكيفية حركة الشفاه والأسنان والحنجرة»، يقول لـ«الأخبار». ويضيف «أستطيع معرفة ما إذا كان الزبون يتحدّث العاميّة، أو الفصحى، أو حتى اللغة الإنكليزية». يُعرف أبو وسام بطيبته يُمازح جيرانه بشكل مستمر. الصَدفة وحدها قد تجعل الزبون العابر يكتشف أنّ البائع أصم، فيما يدخل معظم الزبائن، يشترون، ويخرجون، من دون أن يدركوا أن أذني صاحب الدكّان لم تلتقط أصواتهم.

يتحدّث أبو وسام بلسان ثقيل، لكنّ كلامه مفهوم وواضح. يشرح لنا أنه متزوّج ولديه خمسة أولاد، أبعدت الحرب ثلاثة منهم عنه، وتركت له اثنين داخل البلاد.

نسأل عن أمنياته، فيقول ببساطة «أتمنى فقط ألا تنقطع الكهرباء، لأنّني حينها لن أرى ولن أسمع».

بريد المهجر

منذ أول رصاصة!

فراس الهكار

دعاني موظف المؤسسة الاجتماعية إلى مكتبه المجاور لمكان سكني، بعد التحية والأسئلة الروتينية عن الحال، ورأيي بالطقس الشتوي الأوروبي البارد، باغتني بما لم يكن في الحسبان: «ماذا تريد أن تصبح في المستقبل؟»، قال باعصاب باردة.

تلعثمت، ولم أعرف ماذا أردّ. كان السؤال أشبه بـ«فلاش باك» أعادني عشرين عاماً إلى الوراء، فمنذ ذلك الوقت لم يطرحه عليّ أحد. كنت تلميذاً في المرحلة الابتدائية، وكان السؤال تقليدياً متوقعاً من جميع المدرّسين.

فركت كفّي أحدهما بالآخر، وشبكت أصابعي، لعلّي أتذكّر بماذا كنتُ أجيب حينها. في الزمان الغابر، كان هذا السؤال صعباً أيضاً، لكنني لم أكن وحدي كما أنا الآن، كان الصف يعج بالتلاميذ، ويوسعنا أن نغش، إن لم تكن الإجابة حاضرة، نسرقها من بعضنا، أو «نقتبسها» على طريقة بعض «الأدباء». أما الآن، فأنا وحدي في غرفة صغيرة، أمامي طاولة، يجلس إليها موظف بلجيكي لا يعرف من العربية غير كلمة «مرحبا». ولست أدري بما يفكر تحديداً، إذ يعاين ارتباكي. هو، على الأغلب، يظن أن لغتي الهشّة قد خانتني، فلم أجد المفردة المناسبة لأجيب عن سؤاله. لو كنا نتحدث في شأن آخر غير المستقبل، كان ليساعدني كعادته حين يراني عاجزاً عن تذكر الكلمة المناسبة، فيخمّنها هو. لكن لا يحق له تخمين مستقبلي، فيا الملكية «اللعينة» تمنعه.

المستقبل؟ يا لها من كلمة رنانة! لو كنا ندري شيئاً عنه قبل عشرين عاماً، لقلنا للمعلم: «نريد أن نصير لاجئين». واختصرنا كل سنوات الدراسة والتعب، ووفرنا على أنفسنا توتر ما قبل الامتحانات وما قبل صدور النتائج، وعلى أهلنا مصاريف المدارس والجامعات. لكنّ بيوتنا كانت دافئة وآمنة حينها، تضج بالحياة، ولم تكن طائرات «الديموقراطية» الأميركية قد دمرتها بعد. كنا نستشرف المستقبل من خلال ما حولنا، وما حولنا كان يُبشّر بمستقبل مشرق! أو على الأقل هذا ما خُيّل إلينا.

> كان ما حولنا يُبشّر بمستقبل مشرق! أو على الأقل هذا ما خُيّل إلينا

«ماذا تريد أن تصبح في المستقبل؟». «طبيباً كي أعالج الناس مجاناً»، ذلك قبل أن تتحول كثير من المستشفيات إلى مسالخ وأسواق بورصة، ويصبح بعض الأطباء «تجار أزمة»، لتكون أولى عملياتهم تخدير ضمائرهم ومن ثم استئصالها قبل أن تصحو.

«محامياً، كي أدافع عن المظلومين»، قبل أن نكتشف تفشّي «الوباء» في دور القضاء، وتستحيل السجون قبوراً، ويصير بعض المحامين سماسرة للباطل.

«مهندساً كي أبني البيوت والعمارات وأحل مشكلة السكن». قبل أن يستحيل الاسمنت شظايا، وتسقط السقوف فوق رؤوس ساكنيها.

«طياراً كي أحلق في السماء، وأدسّ لحبيبتي رسالة بين المناشير التي تمجّد الثورة، وتولّه صانعيها». قبل أن تُلقي حممها كيفما اتفق وتحصد أرواح أبرياء.

«صحافياً، بائع حكي» أعطي اليائسين في بلادي جرعات حبر، تُزيّن لهم ماضي أجدادهم، وتُسكن آلام حاضرهم، وتعدهم بغد أفضل لأطفالهم. لكنّ الحبر استحال دماً، وكثير من الصحافيين احترفوا النفخ في النار، ليزيدوا أرصدتهم من «اللايكات» والدولارات.

كل هذه الصور باغتتني كسؤال الموظف الذي ينتظر الإجابة، لكنّ لا جواب.

تذكرت طفلاً سورياً لاجئاً في لبنان، سأله مدرب الرسم في ورشة الدعم النفسي «ماذا تريد أن تصبح في المستقبل؟»، وأجابه بثقة لا تشبه ترددي: «شهيد»! وجم المدرب، أطال النظر في الطفل، من دون أن يدري ماذا يقول. لعل الطبيب احتاج إلى من يدعمه نفسياً، بعدما صفعه الطفل بإجابته تلك.

لقد وُلد ذلك الطفل في ظروف أتاحت له استشراف المستقبل؛ أما نحن، فلا. أشدنا «تشاؤماً» كان يفكر بأن يصير فلاحاً بعد أن يرث أرض أبيه، لـ«يطعم جياع الوطن»؛ قبل أن تُغمس اللقمة بالدم، حرفيًا لا مجازاً.

ليته كان عربياً هذا الذي يسألني عن المستقبل، كنت لأجيبه «عن أي مستقبل تتحدث، هل بقي لنا مستقبل لنفكر به يا هذا؟!». لقد سُرق مستقبلنا أمام أعيننا، وصارت أمنيتنا أن نخرج من تحت أنقاض أحلامنا التي انهارت فوق رؤوسنا، وأن نصل شواطئكم على قيد الحياة.

يا سيدي، ضاع المستقبل مع أول رصاصة أطلقت، وأول نقطة دم سالت، وأول أمّ ثُكلت، وأول زوجة رُمّلت، وأول رأس عُلق، وأول يد قُطعت، وأول امرأة رُجمت، ومع أول صيحة «الله أكبر» أضعنا الماضي والحاضر والمستقبل. أمهاتنا نذرننا للموت، علقنَ على أكتافنا كل ما في حوزتهنّ من تمائم، وقصصن جدائلهن حزناً علينا ونحن أحياء. نحن «أبناء عم الموت»، لم يبق لنا مستقبل نفكر فيه يا سيدي، فهذه البلاد باردة، ونحن نعشق حرارة اللقاء.

سألني عن «الشهادة». قلت: أشهد أن لا إله إلا الله!

أما الأوراق فقد غرقت في البحر. ليتني غرقت معها، لكنني ــ لسوء حظي ــ نجوت. وها أنا كما ترى جئت هنا لأمحو أميتي، ولأكتشف أن العالم الحقيقي هو غير الذي أخبرونا عنه في المدرسة، وأن كتب التاريخ والجغرافيا مزيفة، فهناك من يُغير الخرائط، ويرسم حدود الدول، ويوزع الانتصارات والأوسمة والبطولات كما يشاء، ومتى شاء. لو أنني غرقت معها لما كنت أجلس أمامك الآن، متلعثماً لا أدري ما أقول.

ألمّ أوراقه المفرودة أمامه، وخلع نظارته الطبية. نظر في عينيّ لأول مرة بلا حواجز، وقال: «اذهب، يبدو أن المستقبل صار خلفك».

قلت وأنا أصافحه مودعاً: «منذ أول رصاصة!».